

ومتأسكة (٥) كما يعلن جواد بوليس ، مدخلا على عيشها تقاليد وعلاقات انسانية واجتماعية خاصة بها ، ونتاجها ثقافة مختلفة بالكلية عن الثقافة العربية - الاسلامية ؟

على المستوى الاجتماعي ، لم تكن المؤسسات والتقاليد ، والعلاقات الانسانية والاجتماعية السائدة في مقاطعة الجبل « لتختلف في شيء عنها في المناطق الاخرى من المشرق العربي - فهي تحمل جميعها سمات مجتمع عربي - اسلامي . فالعصبية بالمفهوم الخلدوني ، الانقسامات والتحالفات وفق الانتماآت التاريخية العربية الموروثة (القيسية واليمنية) ، طريقة استثمار الارض .. كلها سمات اقتصادية اجتماعية ، سياسية عربية انشركت فيها كل العائلات صاحبة المقاطعات في الجبل دونما تمييز بين المسلمين ومسيحيين » (٦) .

ففي مناطق الجبل اللبناني ، « تتشابه اشكال الاجتماع البشري ، وردود الفعل الذهنية، وهي ناتجة عن الانتساب الى ثقافة واحدة » فالنظام الواحد للقرابة ، واللغة الواحدة وهما يشكلان المقومات الاساسية للثقافة في المشرق العربي ، كانا في اساس الحياة الاجتماعية والعقلية لجميع الفلاحين في جبل لبنان « (٧) بحيث لا يصح الحديث عن مجتمعات منفصلة تماما ، متباينة في سلوكها الاجتماعي ، رغم العزلة النسبية التي كانت تعيشها في الريف الزراعي .

اما على صعيد النتاج الادبي لدى الطوائف المسيحية في هذه الحقبة الممتدة من القرن الخامس عشر حتى اواخر القرن التاسع عشر ، والذي تراوح بين الشعر والزجلية والتاريخ الكنسي والعام والتاليف النحوي ، فقد حمل الكثير من السمات العربية - الاسلامية ، سواء في النهج المستخدم ، او في الموضوعات التي طرقتها ، او في المخزون الثقافي الذي يأتي ليكتشف عنه .

فالطربيرك اسطفان الدويهي الاهدني، الذي عاش في القرن السابع عشر وتتملذ في المعهد الماروني في روما ، والذي يشكل « نموذجا للمؤرخ في لبنان » (٨) ترسل خطى المؤرخين العرب في مؤلفه « تاريخ الازمنة » الذي شاءه تاريخا للطائفة المارونية مجاء تاريخا للمنطقة العربية ، حتى « وقع في اسر اصحاب الحوليات والابخار فدون الحوادث كأنها امور سنوية » (٩) .

ولم يشكل الدويهي ظاهرة خاصة بين مؤرخي تلك الحقبة ، بل شاركه في منهجه لاحقا طنوس الشدياق (١٧٩٤ - ١٨٦١) الذي أرخ « للاسر المارونية والدرزية والمسلمة في لبنان ، الى جانب عدد من الكهنة والكتاب الذين احدث اهتمامهم الجديد باللغة العربية تأثرا عميقا في حياتهم الفكرية ، فادى ذلك قبل كل شيء الى اثاره وعيهم التاريخي ، مما دفع بعض الكهنة المثقفين الى دراسة آثار العرب » (١٠) .

والمطران جرمانوس فرحات ، الذي يتخذ الدكتور نقولا زيادة نموذجا آخر على اللغوي الشاعر في تلك الحقبة ، « قال الشعر معربا ، بعدما كان زجلا سرياني الوزن » ، وهو الى ذلك « اول نصراني الف في النحو » (١١) وقد حمل حب العربية على « تعريب الانجيل مسجوعا (١٢) بل لعله أول من تصدى وقبل سواه « الى وضع معجم صغير ولكنه صحيح سماه الاعراب عن لسان الاعراب (١٣) والف في حلب مجعلا عليها معنى اعضاؤه بالترجمة عن اللغات الاجنبية ، وفي طبيعتها اللاتينية والاطالنية .

وإذا دخلنا القرن الثامن عشر لننتوقف امام زجلية الاسقف جبريل ابن القلاعي الذي نظم الحوادث التي عرفتها المنطقة زجلا وامام شاعري

البحث في « الادب الانعزالي » يطرح ، منذ البداية اشكالية تاريخية تستدعي الوقوف عندها : هل تولد ، خلال العهد العثماني ، وعلى امتداد عصر النهضة الادبية الحديثة ، ما يمكن اعتباره ثقافة انعزالية خاصة ، منقطعة عن الثقافة العربية - الاسلامية السائدة في عموم المنطقة العربية او ان المشروع الاستعماري قد اطلق وتعهده تيارات ايديولوجية تقول بالانسلاخ عن الانتماء العربي وتتبنا من الحضارة العربية وتنظر للخصوصية اللبنانية ، عرفها لبنان في العشرينات وبعدها ثم عادت تنبعث مجددا خلال الحرب الاهلية اللبنانية ؟

بكلمة اخرى : هل هناك ادب انعزالي ، او ثمة ايديولوجية انعزالية ؟

لنسجل أولا ، بعض الوقائع التاريخية :

في ظل مجتمع اقطاعي ، زراعي ، حربي ، عاش سكان القرية الشرق اوسطية ، وهم غالبية سكان الامبراطورية العثمانية ، حياة انكفاء داخلية ، مطبوعة بالتخلف الاقتصادي على مستوى ادوات الانتاج وعلاقاته ، وبالحفاظة الدينية والاخلاقية ، معزولة عن تلقي تأثير التغيرات الخارجية ، « راكدة لا تتغير ، وممتنعة امام التغيرات ومحاولات الاصلاح والثورات في القرنين التاسع عشر والعشرين ، حتى طبعت محافظتها نمط مجتمع الشرق الاوسط بأكمله حتى اليوم » (١) .

فالتقليدات غير الاسلامية تنظم حياتها الدينية والاجتماعية والادارية والتعليمية والقانونية وفق ثنائون « الملل » وبصورة منفصلة الواحدة عن الاخرى مما وفر لها « استقلالا ذاتيا » بعيد المدى من كل النواحي . كان لها مؤسساتها الخاصة ، الاقتصادية والدينية والقضائية ، « وكسالت كل طائفة مسؤولة عن اعالة مؤسساتها » (٢) . مما جعلها ، اضافة الى الطوائف الاسلامية غير السنية ، منكئة على نفسها ، لا ترتبط بالسلطة المركزية او بملتزمي الضرائب الابعلقة هامشية ذات طابع عمي استغلالي وبدت هذه الطوائف ، وكأنها تمتلك ثقافات خاصة بها . والواقع ان هذه الاخيرة هي تعبيرات ايديولوجية فلاحية عربية تلونت بألوان دينية - مذهبية ذات طابع معارض بشكل عام للسلطة المركزية التسمية « (٣) حتى ذهب فيليب حتي الى اعتبارها « بمثابة دولة مصغرة ضمن دولة كبيرة » (٤) .

فهل كان لجو الجماعات اللبنانية الدينية ، والمسيحية تحديدا ، الى الانتظام في تكتلات واتحادات اجتماعية وسياسية وثقافية منظمة

بلاط الأمير بشير الشهابي المتعاقبين ، نقولا الترك وبطرس كرامة ، طلعتنا بخلاصة ان الثقافة التي أنتجتها الطوائف المسيحية والمارونية تخصيصا على ضالتها وتلونها بالطابع الديني الاكثريكي ، « تشكل جزءا لا يتجزأ من الثقافة السائدة في المنطقة العربية وبالتحديد السائدة في المشرق العربي » (١٤) .

هذا من حيث ثقافة « الملة » المارونية (والتي اخلت مكانها لتعبر « امة » في لغة المستشرقين الاجانب كما في لغة المراسلات الدبلوماسية في عصر التدخل الاستعماري في المشرق) .

اما من حيث الانتاج الادبي الخصب الذي جرى على افلام المسحيين من ابداد النهضة الكبار (أمين الريحاني ، ميخائيل نعيمة ، مارون عبود ، رثيف خوري ، جبران خليل جبران ، الياس أبو شبكبة ، شفيق الملوغ وسواهم) فان قراءة ، ولو عجلي له ، تجعلنا نقف على المضمون الديمقراطي الذي يختزنه ، متجليا في خمس سمات مميزة يتسم بها مجمل هذا النتاج ، على تفاوت بين كاتب وآخر :

١ - عدائته حيال الاستعمار الغربي ، كناهب للثورة القومية ، وكذلك حيال مادية الغرب ولا اخلاقيه .

٢ - ثورته على الاقطاع بوصفه يقع في اساس التخلف الاقتصادي الاجتماعي وعلى التقاليد الاجتماعية التي تعيق حركة التطور .

٣ - تمرده على الكهنوت ، كحليف للنظام الاقطاعي ، ودعوته اللجوجة الى انسحاب رجال الدين من نطاق العمل السياسي ، وانخراطهم في مجال الالتزام الاجتماعي ، الى جانب المستضعفين والفقراء والمعاش الى الرحمة والعدل .

٤ - تحسسه اوضاع البؤس التي يعيشها المستغلون (بالفتح) وانجذابه نحو الشعارات التي وفدت الينا مع الثورة الفرنسية ، والقائلة بالحرية والمساواة والاخاء بين بني البشر .

٥ - اعلانه انتماء الشعب اللبناني الى العروبة ، حضارة وتراثا ورباطا سياسيا واشتركا في المصير الواحد ، ومناهضة لاية دعوة تقول بالانعزال عن العالم العربي سياسيا ، أو تتبرأ من الحضارة العربية انتماء .

نحن اذن امام ادب نهوضي غلبت عليه الاتجاهات الديمقراطية العلمانية غلبة كاسحة يدعو رواه الى قيام مجتمع يبني على «قاعدة المواطنة لا الطائفية ، على قاعدة القومية العلمانية الجامعة لشتات الامة » (١٥) مع ما يمثله هذا الموقف من قطع واضح مع اي اتجاه انعزالي او فاشي او طائفي عصبوي .

اما النتاج « الادبي » الذي جاءت به الحرب الاهلية ، باقلام كتاب انعزاليين ، فهو من الضالة والابتذال والفجاجة السياسية الصارخة بحيث امتنع كافة المشتغلين في النقد الادبي ، عن اعتباره ادبا يستحق الدراسة او يستأهل وقفة تقييم جدية ويجعلنا نتعاطى معه بوصفه لونا من ألوان المناشير السياسية الرخيصة ، والمفتخرة الى الحد الأدنى من الإبداع الادبي (١٦) .

من خلال هذا الاستعراض ، وقد شئناه مدخلا يعيننا على تحديد دقيق للموضوع قيد البحث ، نبلغ الخلاصة التالية :

ان الحصيلة العامة للادب اللبناني في تجلياته التاريخية الاولى كما في تعبيراته الحديثة لا تبيح الحديث عن ادب انعزالي ذي شأن ، وتلزمنا

البحث في نطاق آخر نراه ادنى الى المقاصد التي يتطلع اليها المؤتمر ، عيننا به : الايديولوجية الانعزالية ، في مفاهيمها وسماتها وتعبيرها السياسي وصولا الى السجل الاولي مع مفاتيحها الرئيسية .

ملاحظات منهجية :

الايديولوجيا ، تعريفا ، هي قراءة مضللة للواقع ، وعي مزيف يحجب المصالح المادية ، ويستبدل بها مصالح وهمية . وهي على هذا الصعيد اذا ملكت وعي الجماهير ، تحولت الى قوة مادية حقيقية يحذر ويلهام رايش من الاستهانة بها ، « بعدما اتضح انها أقوى ، في مرحلتنا التاريخية الراهنة من ضغط الحاجة المادية ، ولولا ذلك لما كان هنتر وتيسن هما اللذين يتربعان على سدة السلطة الآن » وما يصح على الجماهير الامتية المضللة بفعل الايديولوجية النازية يصح في وجوه عديدة منه على الجماهير المسيحية التي تلعب الايديولوجية الانعزالية دور الحاجب لمصلحتها الفعلية (١٧) .

ولكن لا بد لنا ، قبل العرض التنصلي للمفاهيم التي تشكل مفاصل الايديولوجية الانعزالية من بعض الملاحظات المنهجية التي تشكل ضابطا نظريا وتاريخيا للنص :

١ - السؤال الاولي الذي يستدعي اجابة هو : اذا كانت كل ايديولوجية هي ايديولوجية طبقة بعينها ، فكيف يصح الحديث عن « ايديولوجية انعزالية » بشكل عام ، كما لو ان الجمهور الانعزالي يشكل طبقة متجانسة ؟

في الاجابة ، نؤكد مسبقا ان الايديولوجية الانعزالية هي في الواقع ايديولوجية تسم من القيادة الطبقة والسياسية داخل الطائفة المارونية ، وقد باتت معممة على سائر الطبقات والشرائح التي تجتمع في الطائفة . وتعميم هذه الايديولوجية هو الذي يشكل اساس الهيمنة التي تمارسها هذه القيادة الطبقة على عموم ابناء الطائفة ، خصوصا وانها تمتلك جهازا فعالا من المؤسسات الاكثريكية والتربوية والاعلامية تؤمن ضخ هذه الايديولوجية وشيوعها .

٢ - ان المفاهيم الايديولوجية الانعزالية لم تكن دائمة واحدة خلال المراحل التاريخية الممتدة منذ الربع الاول من القرن الحالي وحتى اليوم .

ففي كل مرحلة تاريخية ، كانت القيادة الطبقة المهيمنة داخل الطائفة المارونية تصوغ مفاهيم ايديولوجية معينة ، تخدم مصالح هذه الطبقة في هذه المرحلة المحددة زمنيا . واذا كنا قد اضطررنا الى عرض المفاهيم الانعزالية بشكل مجرد ، ودون ادراجها في سياق نشأتها التاريخية ، ودون تمييز بين ما طغى من عناصرها في مرحلة ما ثم انحسر في مرحلة لاحقة ، كالتمييز الذي يمكن اعتماده مثلا بين ايديولوجية ما قبل الحرب الاهلية ، وايديولوجية الحرب نفسها ، فان ذلك لا يلغي حقيقة ان بعض هذه المفاهيم ، أو بعض عناصرها على وجه التحديد ، قد جرى تضخيمه خلال الحرب على حساب بعضها الآخر . فال مفهوم الذي يعتبر لبنان منتما الى الحضارة الفينيقية والمتوسطة كان تعبيرا عن حاجة البرجوازية التجارية في العشرينات وما بعدها ، الى ايديولوجية تغطي عملية نهبها للمنطقة العربية وغزوها الاسواق . غير ان المفهوم قد سحب من التداول خلال الحرب لصالح مفهوم « لبنان للرد » ، اي لبنان الذي يتحصن اهله في الجبال في وجه الطغيان الاكثري الاسلامي ويشرعون في مقاومته دفاعا عن وجودهم وتمايزهم وحرمتهم الدينية والسياسية . « لبنان الفينيقية » هو

لبنان التاجر ، المفتوح اقتصاديا ، أما « لبنان المردة » فهو لبنان المنزول سياسيا ، المقاتل دفاعا عن خصوصيته .

وما يصح على هذين المفهومين ، يصح على التعاطي الايديولوجي مع الاسلام والمسلمين ، حيث ان الموقف العنصري من المسلمين لا علاقة له بمنطق « لبنان الفينيقي » ، الذي يستوعب الوجود الاسلامي ويحدد وظيفته ، بل بمنطق « لبنان المردة » ، القائم اساسا ضد المسلمين ، وبالصرع معهم . لذلك لم يكن غريبا ان يسود المفهوم العنصري خلال الحرب بالذات ، بينما كان خافتا او ضامرا في الحقبة السابقة عليها .

٣ - اذا كانت الايديولوجيا تزور الواقع ، وتضخمه ، غير انها لا تخلق هذا الواقع . لا تنطلق من عدم او فراغ . بل تتكئ على عناصر متوافرة في هذا الواقع نفسه ، لتلجأ الى تضخيمها ، وعلى حساب عناصر اخرى ، وتنجحها تقسيرا مزورا .

وبهذا المعنى فان المفاهيم الايديولوجية الانعزالية ليست كلها ايديولوجية ، تزويرية . فالقول بلبنان ملجأ الاقلية الهاربة من الطغيان الاكثري اعلان عن واقع تاريخي صحيح ، قال به ، بين من قال « القائد الشهيد كمال جنبلاط . غير ان الايديولوجية الانعزالية تنطلق منه نحو مشروع سياسي ، وتبحث عن كيفية تغليب اقلية على سائر المواطنين ، عوض ان تبحث في كيفية تنظيم التعايش بين هذه الاقلية في اطار نظام ديمقراطي ، علماني .

والقول ايضا بان لا سبيل الى الفصل بين العروبة والاسلام ليس نتاج الايديولوجية الانعزالية ، بقدر ما هو نتاج الفكر العربي الاسلامي السياسي الذي لم يعمد الى مثل هذا الفصل ، بل أكد الوحدة العضوية بين الطرفين ، ما خلا قلة قليلة من المفكرين المسلمين ، تشكل استثناء لا يعتد به كثيرا .

انطلاقا من هذه الملاحظات ، تقدم على قراءة الايديولوجية الانعزالية ، كما تقدم نفسها .

١ - مفاهيم الايديولوجية الانعزالية

١ - لبنان الفينيقي :

لبنان ، على المستوى الحضاري لا ينتمي الى الحضارة العربية ، حيث ان الفتح العربي جاءه غازيا يسيطر احتلالا عسكريا ويتطلع الى قطع لبنان عن جذوره الحضارية الممتدة في التاريخ السحيق حتى الفينيقيين ، واخضاعه لعملية افئزاز حضارية . « فالفينيقيون هم اجدادنا ، والشعب اللبناني استمر وجوده فوق التربة اللبنانية قبل التبشير الماروني بعشرات الالوف من السنين . هو الشعب الفينيقي اللبناني الذي يعتبر شعبا اصيلا في لبنان » (١٨) « والشعب الماروني فينيقي يعيش فوق التربة اللبنانية منذ آلاف السنين » (١٩) .

ياخذ هذا المنطق نقطة انطلاق له من رفض الواقعة التاريخية القائلة بان الجزيرة العربية هي مهد الشعوب السامية ، معتبرا اياها « هراء وافتراسا محضاً اطلقه بعض الطلبة المستغلين بالتاريخ، على انه افتراض محض لا حقيقة ثابتة. وقد انكر انطباقه على الحقيقة كثيرون من العلماء» (٢٠) .

الشعب اللبناني ، اذ، ينس من السلالات السامية التي وفدت من الجزيرة، بل هو سليل للشعب الفينيقي اللبناني والشعب الارامي السوري وشعوب البحر « (٢١) وهي شعوب اصلية استوطنت لبنان ولم تقد اليه من

الجزيرة .

أما الفتح العربي فهو احتلال محض لم يمتلك تأثيرا فعليا على الحضارة الاصلية لاهل البلاد « فالتحولات الدينية واللغوية التي حصلت عند الفتح سطحية ومتقلبة ، ولم تغير اعماق السكان الاصليين ، فالصفات الجوهرية التي كیفها الوسط الطبيعي للفينيقيين القدماء بقيت كصفات الشعوب الشرقية الاخرى متواصلة بعد الفتح العربي الاسلامي » (٢٢) مستنتجا من ذلك انه « بسبب تغير المظهر الخارجي في اللغة والدين ، تكوّن اعتقاد بان الفينيقيين والآراميين والبابليين وغيرهم قد اضمحلوا بعد الفتح العربي، أما الحقيقة فهي ان هذه الشعوب المختلفة بقيت في بلادها ، ودامت لها طباعها الجوهرية الاساسية » (٢٣) .

يتأسس على ذلك ان الموارنة يحتفظون في شخصيتهم الجماعية ، بالطباع الفينيقيّة سواء على مستوى العناصر المكونة للنفسيّة المارونية او على مستوى السلوك في تحصيل المعاش، فقد ورثوا عن الفينيقيين كل شيء: ورثوا روحا جبارة ، وثابة قوية الشكيمة في خرق الاخطار (٢٤) ومرونة غربية ودمائة اخلاق عجيبة ناتجة عن الروح الانسانية الاصلية التي تحلى بها الفينيقيون ، روح المحبة (٢٥) وورثوا ايضا دابا على العمل وبراعة وحذقا فيه الى حد العبقرية . وهي من ابرز الصفات الفينيقيّة (٢٦) كل ذلك الى جانب اتقان اللغات بوصفها اساسا لا غنى عنه لمواصله « مهمة الفينيقيين القائمة بالتقريب بين الشعوب » (٢٧) .

لكن هذا الانتهاء الى الحضارة الفينيقيّة لا يقصد له ان ينتهي عند هذه المحطة بل ان يتجاوزها نحو محطة هي المستقر الاخير للفكر الايديولوجي الانعزالي في مضمار التاريخ والحضارة : الحضارة المتوسطة التي كان اول من طوّرها الفيلسوف اللبناني رينيه حبشي .

ولسنا نجد أفضل من الخاتمة التي اختارها الاب بطرس ضو لكتابه تحليل على احداث النقلة من القول بالانتماء الى الحضارة الفينيقيّة الى القول بالحضارة المتوسطة : « ان حضارتنا حضارة متوسطة عالية ، بسبب موقعنا الجغرافي وتركيبنا الاثنى وانفتاحنا على العالم . فنحن شعب متوسطي منذ اقدم الاجيال . وجوهر هذه الحضارة ومبركاتا وعناصر تركيبها وتعبيرها فينيقيّة لبنانية ومتوسطة عالمية معا وفي هذا المركب الرائع اللبناني الانساني ، دخلت العربية منذ مدة كجزء من الخطوط والملاحم » (٢٨) .

فالمتوسطة استيعاب للحضارة الفينيقيّة وسواها من الحضارات التي عرفها ساحل المتوسط : اطار يضم اليه هذه الحضارات بحيث يحو الطابع العربي عنها ويذيه في هذا الكل ، نوع من الكوسموبوليتية الحضارية توفر اساسا للمركنتيلية الحديثة ، ولنفسية التاجر الوسيط الذي يتمثل بالتجار الفينيقيين الذين، على ما ذهبت اليه الاساطير اليونانية. فقد تاجروا بكل شيء . تاجروا بالرق ، رجالا ونساء واطفالا ، اشتروهم أو خطفوهم « (٢٩) وهي تشكل، في الايديولوجية الانعزالية ، بديلا عن الحضارة العربية ، اذ « تقدم الحل الوحيد الصحيح للهوية الحضارية للبنان والعالم العربي . انها المخرج من ازمة الحضارة العربية - الاسلامية ، وهي المجال المفتوح امام قيام اللبنانيين عامة ، والمسيحيين خاصة ، برسالتهم التاريخية » (٣٠) وهي اخرا ، ولدى ميشال شيحا ، المستقر الحضاري الوحيد الذي « يجد فيه لبنان والعالم العربي توازنه » .

٢ - لبنان - الملاحم :

اذا كان لبنان فينيقيا اولاً ، كما تعلن الايديولوجية الانعزالية، فهو

ملجأ الاقليات الهاربة من الطغيان الديني والعرقي ، ثانيا . فينيقي على مستوى الانتماء الحضاري ، وملجأ على مستوى التاريخ السياسي ، والفكر السياسي .

نظرية لبنان — الملجأ التي كان الابن اليسوعي هنري لامنس اول من اطلقها ، تنطلق من مقدمتين :

— ان تاريخ المنطقة العربية هو في خطه العام ، تاريخ اضطهاد الاكثية السنوية الحاكمة للاقليات العرقية والدينية وقهرها ، باقصائها عن السلطة السياسية ، وتقييد حريتها في ممارسة معتقداتها وشعائرها الدينية . فالتمايز الديني هو الاساس في الصراع والمفتاح الذي يفسر التاريخ السياسي للمنطقة .

٢ — ان الفتوحات العربية تترد في حقيقتها الاخيرة الى هجوم البدوة على المنبسطات الحضارية التي عرفتها فينيقيا الساحلية (فلسطين، لبنان ، سوريا) حيث بلغ التقدم الحضاري مبلغا لم يعرفه العرب البدو الوافدون على شكل غزوات بربرية تهديمية لعالم الحضارة ، وعدائية حيالها .

انطلاقا من هاتين المقدمتين تذهب النظرية الى القول ان لبنان وجباله تحديدا شكلت ملجأ لهذه الاقليات الهاربة من الطغيان بحيث بات تاريخ لبنان القديم ، وحتى الهيئت منه ، يرد الى تاريخ هذا الجبل المتأهب بفعل مناعته وتحصنه الجغرافي لاستقبال كل مطرود وملهوف وطامع في الحرية والكرامة .

فالجبل ، هو « شرط وجود هذا البلد وهو ما اعطاه الملامح الاساسية لتفرد ، وما تحكم بوجوده السياسي والعسكري ومنحه الاستقلال ولكنه كتطور طبيعي أصبح فوق ذلك ملجأ دينيا . تحول جبل لبنان الى ملجأ الاقليات الباحثة عن الحرية والامن على اختلاف انواعها » (٢١) وصولا الى القول بانها « اذا استثنينا مسائل الدين والجنس واللغة والاسم التي تعتبر ثانوية ، فتاريخ لبنان هو شخصيته جغرافية جماعية » (٢٢) .

وتتردد نظرية الجبل — الملجأ في مؤلفات فيليب حتي حيث ان لبنان « جبل بكل ما في الكلمة من معنى » وهو بفعل ذلك شكل « ملجأ عبر الاجيال لكل اصحاب عقيدة تخالف عقيدة الجماعة التي يعايشونها وحمى لجماعات من الاقليات المضطهدة » (٢٣) .

وترى كافة الادبيات الصادرة عن الجبهة « اللبنانية » كما توجهها دراسات جامعة الروح القدس في الكسليك ، « ان ما ينقص الجميع ويفتقرون اليه هو هذا اللبنة الذي بفضل موقعه وطبيعته استطاع ان يحضن كل الذين على مر التاريخ قد اضطهدوا بسبب المعتقد الديني وان يؤمن لهم الحرية » (٢٤) .

الجبل — الملجأ ، اذن ، نوع من الحاجز الجغرافي اولا والحضاري والسياسي استطرادا في وجه الحضارة العربية ، والانتماء السياسي الى المحيط العربي . انه تعبير عن تلك القطيعة المطلوبة مع هذا التراث العربي . انه تعبير عن ذلك السد الذي يحمي « خصوصية اللبناني » ويحصنه ضد الذوبان في المحيط الاكثري الاسلامي . الجبل مكان ينسحب اليه الانزالي كموقع للانكفاء ، او محطة اجتماع وعيش للراغبين في التفرد والتعالي .

وليس من قبيل الصدفة ان تقابل الايديولوجية الانعزالية مفهوم الصحراء بمفهوم الجبل . فالصحراء امتداد اغبر لامتناه ، لون من المسد العددي الكمي ، تعبير عن الفقر والجفاف والعقم والتفاهة في مواجهة جبل

مأهول خصب كثيف في عمقه الحضاري، تقطنه مجموعات عريقة ومتنوعة. الجبل انتخاب واصطفاء فيما الصحراء كثرة ورتابة .

وعندما تضع الايديولوجية الانعزالية الجبل في مواجهة الصحراء فهي لا تسوره في المطلق . تحصنه من جانب لتفتحه على آخر : تحصنه ضد الصحراء ، وتفتحه على البحر . على الحضارة المتوسطة ، على الغرب اخيرا .

ولسنا في ذلك لنستقرىء بل نقرأ ما انصح عنه فيليب حتي : « لبنان يتميز بجباله المتكويين جبال لبنان الطبيعي يجعل اتجاهه نحو بلدان الغرب » (٢٥) .

ينفلق على العرب ، وينفتح على الغرب . بين الصحراء والبحر يختار البحر فهو فينيقي اساسا ، وضارب في الماء . يمعن في البحر ويدعو اليه البحر . اذا طلب رزقا حول الجبل جسرا بين الصحراء والماء واذا دعى ليسفك دما تعبيرا عن انتماء رفع الجبل حاجزا . تلك هي المعادلة .

اما قال شارل مالك مرة « ان جبل لبنان يعني تاريخا وكيانا ، مناعة وفصلا بالنسبة للصحراء، واتجاها وانطلاقا نحو البحر الابيض المتوسط » (٢٦)؟

٢ — الاسلام والمسلمون :

عندما ترى الايديولوجية الانعزالية في الحكم الاسلامي في عصوره المتعاقبة ، اداة قمعية تنطلق الى ضرب معالم الحضارة المسيحية التي يجسدها الموارنة الفينيقيون ، وعندما تسجل باستعلاء مظاهر التخلف العربي على شتى المستويات ، فهي لا تفعل ذلك انطلاقا من محاسنة تاريخية لانظمة الحكم التي تعاقبت على المنطقة بدءا بالامويين والعباسيين وانهاء بالعمور الحديثة بل تتوقف عند الدين الاسلامي معتبرة اياه المصدر الاول للقمع والتخلف والعائق الرئيسي امام تطور هذه المجتمعات .

فالاسلام ، كصوص قرآنية ، « ينمي روح العداوة والعنصرية وروح التسلط والتعالي ومركبات الكبرياء والتسامي ، وهو بدافع عدواني مقدس، يبرر الاضطهاد الشرس الذي يمس الحرية الانسانية في اقدس خيبر لها » (٢٧) .

اما المسلمون تاريخيا فقد اخفقوا في تأسيس حضارة ذات وجه انساني ، « لان البنية الانثوية الاسلامية العربية ، اي بنية اهل السهول والبادي تغلب عليها . روح الترحال والغزو والتهديم والتدمير » (٢٨) .

وعندما تكون الحضارة الاسلامية على هذا القدر من الانغلاق والتعالي ، مشبعة بروح التسلط ، يستحيل عليها اذا ذلك ان تتعايش مع الحضارات الاخرى ، « فالتجارب التاريخية دللت على ان الحضارتين ، المسيحية والاسلامية تصادمتا دوما ولم تتحاورا ، ذلك ان الحضارة الاسلامية استعملائية لا تقبل باحترام الحضارات الاخرى . فنية الاخذ والعطاء غير ممكنة لدى الاسلام » (٢٩) الامر الذي يجعل « من الصعوبة البالغة تصور شعب متعدد الاديان في لبنان باعتباره امة » (٤٠) .

المسلم اذن كائن منفلق على المستوى الذهني ، غير مؤهل للحوار ، ولا للنزول عند موجبات التعايش المتكافئ مع ابناء المذاهب الاخرى، سواء بفعل الذهنية الاكتفائية ، العدوانية التي ينميتها القرآن لديه ، او بفعل النواهي القرآنية التي تحظر عليه العيش تحت وصاية ذمي او سلطته . فالاسلام دين ودولة ، والمسلم مدعو شرعا الى بناء دولة الاسلام ،

ان التفريق النظري الذي دعا اليه المسيحيون بين العروبة والاسلام ، لم تأخذ به الجماهير الاسلامية ، ولا قال به المفكرون القوميون المسلمون وان عودة المسلمين الى قيادة حركة الانبعاث القومي بعد ١٩٠٩ اعاد اليها الصبغة الدينية ووجد مجددا بينها وبين الدين الاسلامي ، مما يقطع بان الفكر الاسلامي ، لا يميز بين الانتهايين ، ولا يتصور قومية عربية بلا مضمون ديني .

٥ - قانون الاكثرية والاقلية :

عن اختلاط العروبة بالاسلام ، وعدم واثية المسلم اللبناني للكيان ، واستقوائه الدائم بالمحيط الاكثري الاسلامي ، تتأتى محصلة تشكل واحدة من الثوابت في الايديولوجية الانتزالية : ان المسيحيين يعيشون في خوف دائم من الطغيان لجرد انهم اقلية في محيط اكثرية مختلفة دينا . فالاكثرية ، بطبيعتها مستبدة . واستبدالها عنصر ملازم لكونها اكثرية ، مهما حاولت ان تنهج سبيل الديمقراطية . فمن الثوابت التاريخية والسوسيوولوجية الملزمة لطبيعة المنطقة العربية واتع « الاكثرية الاسلامية الذي يشكل نوعا » من الطغيان العددي والفكري والثقافي على ما عداه من حضارات وثقافات وتراثات « (٤٧) .

ومهما فعلت الاكثرية الاسلامية لطماننة الاقلية ، ومهما اعلن الاسلام اللبناني على سبيل التخصيص ، ايمانه بنهائية الكيان اللبناني ، ورفضه اي لون من الوان الوحدة العربية ، فان الايديولوجية الانتزالية تعتبر الازمة قائمة لانه « اذا قيل بان استقلال لبنان الذي طالما اقلق بال مسيحيين واقع قائم ، ونهائي ، ويؤمن به المسلمون قدر ايمان اخوانهم المسيحيين فدلالة على ان المسلمين ما ادركوا بعد حقيقة القتل المسيحي من هذا القتل ، انه خوف من طغيان معين ، طغيان سياسي ، طغيان حضارة على حضارة ، طغيان فكر على فكر ، طغيان عددي » (٤٨) .

اما كيف الخروج من هذه الدائرة المغتلة ، فان المشروع السياسي الذي يطرحه التيار الانتزالي ، كحيل بتقديم الجواب : ان تحكم الاقلية الاكثرية حكما استبداديا يلغي فعالية الاكثرية ، فتطمئن عندها . .

٦ - ثلاثية لبنان - المارونية - الغرب :

في مقابل الراي في العروبة والاسلام ، دينا وتاريخا سياسيا ، كيف ترى الايديولوجية الانتزالية الى المسيحية والغرب ولبنان ، والعلاقة بين الاطراف الثلاثة ؟

ثمة معادلة ثلاثية في الفكر الانتزالي حول هذه المسألة ، مترابطة ومتدرجة ، ويمكن ايجازها تحت العناوين التالية :

- لبنان نتاج ماروني ، من حيث الواقع التاريخي .
- المسيحية اللبنانية تنتمي الى الحضارة الغربية .
- لبنان جزء من العالم الغربي .

١ - لبنان نتاج ماروني :

لعل هذا المفهوم يقع في صلب الايديولوجية الانتزالية ، بل يشكل مفصلها الرئيسي لذلك لم يكن عيبا ان يأتي عليه المفكرون الانتزاليون جميعا ، ومن جوانبه كلها .

وان قصر المسلمون عنها في ظروف معينة فليس ذلك تخليا عن المطمح النهائي ، بل ارتقبا للفرص المواتية . والمسلم الى ذلك ، يوالي المسلم فقط ، ويرتبط به برباط الدين الواحد مما يضعف الرباط القومي أو الاجتماعي الذي يشده الى مواطني بلده من ابناء الطوائف الاخرى ، ويجعله دائم التطلع « خارج الحدود » الى حيث اخوته في الدين .

هذه التربية الدينية التي يشب عليها المسلم تجعله موضوعيا ، في حكم الخائن بالقوة للنصارى من ابناء وطنه ، وتبيح للآخرين التعاطي معه بوصفه عنصرا لا يؤمن على مصير وطني ، ما دام مشدود الولاء الى ما يتجاوز حدود الوطن . انه « خائن بالقوة » وخبيث ، بالمعنيين السياسي والاخلاقي يتنازل ظاهرا عن مطعمه في اقامة الحكم الاسلامي فيما يستعد باطناله بالانفاس والعدة .

ولم تترك الايديولوجية الانتزالية هذا الحكم القيمي مضرا ، بل انصحت عنه بجلاء في مختلف ادبياتها ، واخصها ورقة العمل التي قدمها حزب الكتائب الى خلوة سيدة البير في ٢١ كانون الثاني ١٩٧٧ والثالثة : « تلك هي العلة المموسة في بنيتنا الوطنية ، وفي صيغتنا اللبنانية : عدم ولاء اكثرية طائفية معينة للبنان الوطن والكيان ، الدولة والنظام ، وقابليتها للتحرك من الداخل ضد الوطن والكيان والدولة والنظام كليا . وفي كل حال ، عدم استعدادها للدفاع عنها بوجه اي خطر أو عدوان يمت بصلة ولو ظاهرية الى العروبة والاسلام » (٤٩) في حين « ان الفريق المسيحي يعلن ولاه المطلق للبنان ، ويلتزم بمنطوق الميثاق الوطني القاضي بان يتخلى المسيحيون عن الحماية الاجنبية » (٤٢) .

٤ - العروبة :

اذا كان الاسلام ، كدين يشكل تهديدا للوجود المسيحي ، فهل تشكل العروبة خلاصا لهذا الوجود ؟

الايديولوجية الانتزالية تمكك جوابا قاطعا . لا

« فالعروبة ، هي الاسلام والمسلم هو العروبة » (٤٣) ولزيد من التأكيد « فلا عروبة لولا الاسلام ولا استمرار للعروبة لولا الاسلام » (٤٤) .

وليست هذه العلاقة بين الطرفين نتائج ظروف تاريخية معينة ، بحيث يمكن توقع انفكاكها عند زوال هذه الظروف « فهي ليست عرضية ، ولا سطحية ولا ظرفية . علاقتها عضوية مستمرة . انها علاقة العلة بالمعلول » (٤٥) .

كانت اسلامية لدى مفكري القرن التاسع عشر ، واستمرت اسلامية لدى الكثرة الغالبة من قادة التيارات القومية المعاصرة . لذلك فالقومية العربية ليست مرحلة متقدمة على الجامعة الاسلامية ، كما طرحها المفكرون المسلمون ابان الحكم العثماني ، بل هي نفسها الجامعة الاسلامية ، موهمة بالفاظية قومية . القومية العربية هي الشكل الحديث لانبعاث الاسلام ، التعبير السياسي الراهن عن المعصية الدينية ، فهي بالتالي « اسلامية المنطلق ، والهدف ، وترمي الى اقامة مجتمع سياسي يتولى القرآن رعايته » (٤٦) .

اما الحجة القائلة بان المسيحيين كانوا روادا للقومية العربية في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر ومؤسسي الحركات السياسية القومية في النصف الاول من القرن العشرين فتردها الايديولوجية الانتزالية بالقول

هذه التأكيدات التي ترتقي الى مصاف الحقائق غير القابلة للجدل ، في الايديولوجية الانعزالية تسمح لامين ناجي المنظر الاول لحزب الكتائب ، ان يعلن انه « وهم المسلمون عندما اعتقدوا ان تخلي المسيحيين عن الحماية الغربية هو تخل عن الحضارة الغربية وعن اسباب الاتصال الوجودي بالغرب ، هذا التخلي الذي يعني تنكرا لذاتها » (٦٠) .

ج - لبنان جزء من العالم الغربي :

عندما توحد الايديولوجية الانعزالية المسيحية بلبنان ، ثم المسيحية بالغرب يصبح من باب تحصيل الحاصل ، اعلانها ان لبنان كحضارة وككيان ، هو جزء من الحضارة الغربية تراثا ، ومن العالم « الحر » سياسيا .

وغربية لبنان ليست طارنا يحدث اليوم . بل كانت منذ كان في انظمة الحكم السياسية التي عرفها تاريخا ، « فاتصال لبنان الخلاق ، العضوي بالغرب ليس وليد الامس وليس عرضا من اعراض اي اقتضاض استعماري جاءه من الخارج ، او اية مؤامرة استعمارية حكمت له في الغرب انما هو جزء لا يتجزأ من تراثه التاريخي الطويل على تقطعه ومأساويته » (٦١) .

لذلك ، فهو يصير على « الانقطاع ، تحت اي ظرف من الظروف ، حيث انها طريقه السوي الى العالم الحر المنفتح الذي هو جزء لا يتجزأ منه بل يصير على تعميق هذه الصلات وتتميرها » (٦٢) .

وحيث تبسط الجبهة اللبنانية « تفسيرها لاسباب الحرب الاهلية ، تضع في مقدمتها سببين ، « مؤامرة لقطع لبنان عن تراثه التاريخي المتواصل بصورة تعسفية قهرية ومؤامرة لقطع اللبنانيين عن جذورهم في التراث الغربي المتراكم الكثيف الذي تفاعلوا معه عبر التساريخ والذي اعطوه واخذوا منه الكثير » (٦٣) .

وجلي ، هنا ، كيف تربط الايديولوجية الانعزالية بين الانتماء الى الحضارة الفينيقية والانتماء الى التراث الغربي ، اذ ترى الواحد وجهها للآخر ، مكملا لمنطقيا له ، وكل مؤامرة تستهدف احد الانتمائين ، تستهدف الآخر بالضرورة .

٧ - التعددية الحضارية :

بهذه المقولة ، تجد الايديولوجية الانعزالية تتوجها الارقي ، ونهاية منطقها . في لبنان ثمة حضارتان متمايزتان تشكل كل واحدة كلا لا يتجزأ تنتجبلان بلا حوار وتنتجان ثنائية في الواقع الاجتماعي والاقتصادي والايديولوجي والتربوي .

واذا ذهبنا في تقصي جذور هذه المقولة وجدنا انها تضرب عمقا في النظرية التاريخية التي قال بها المؤرخون ذوو الميول الانعزالية وبعض المؤرخين الليبراليين وخلصتها ان تاريخ لبنان ، قديمة والحديث ، يختزل الى تاريخ « تعاقد » بين الطوائف التي تمثل مؤسسات سياسية واجتماعية وثقافية وان هذا التاريخ هو تاريخ تطور العلاقة بين هذه المؤسسات غير القابلة للاختراق من خارجها ، او التفاعل في ما بينها . مخط التطور ينفي اي انشطار او صراع داخل الطائفة ، ويؤكد تماسك بنائها الداخلي ، وقدرتها على اعادة توليد عناصر تماسكها ، على الدوام، والتاريخ السياسي للبنان عندهم هو « تاريخ مستقيم يجعل المسيحيين في علاقة صراعية دائمة

مؤاد انرام البستاني ، يقيم تلازما لا ينفصم بين المارونية ولبنان فالمارونية بنت لبنان ، ولبنان في الكثير من مزاياه وخصائصه من صنع المارونية . عملت في تطوره حتى عرف بها وعرفت به فلا وطن لها سواه ، ولا كيان لها بدونها » (٤٩) .

ويطرس ضو يجزم بان « لبنان المستقل من صنع الموارنة المردة » (٥٠) والاب بولس نعمان يذكر « انه حدث يوم من التاريخ كانت فيه دعوة المارونية من دعوة الجبل ، فكانت الجمهورية اللبنانية » (٥١) معتبرا الكنيسة المارونية بمثابة الام لهذه الجمهورية « عملت الكنيسة المارونية كام طيلة اجيال واجيال فلكي تحل الجمهورية اللبنانية محلها في القيادة الوطنية » (٥٢) .

وامين ناجي يرى ان أي خط بياني يرسمه المؤرخ منذ الفتح العربي للمشرق ، وحتى قيام لبنان الكبير يظهر بوضوح « سعي المسيحيين والموارنة خصوصا ، في ان يكون لهم وطن يشكل كيانا مستقلا لا يعيشون فيه أهل ذمة » (٥٣) .

لكن شارل مالك يبقى خير من صاغ هذا المفهوم على الإطلاق ، ومنحه ترجمته العملية : « كنا مسؤولون عن لبنان غير ان الموارنة مسؤولون بشكل خاص ، وفي الدرجة الاولى ، مصر لبنان يقع في الدرجة الاولى على عاتق الموارنة . اذا ازدهر لبنان وشمخ وملىء سلاما وثقة ومحبة فلا اقبل بأية حال ان تدعي الفضل في ذلك اية طائفة اخرى ، غير الموارنة . هذا مجد المارونية وفخرها : ان مصر لبنان وجودا وكيفا ، منوط بها اكثر من غيرها » (٥٤) .

ولا يقتصر الامر في الايديولوجية الانعزالية ، على القول بلبنان ووطنا للمارونية بامتياز ، يتحد مصيرها بمصيره ، بل يتجاوزها الى اعتبار لبنان موثلا لجميع نصارى الشرق ووطنا روحيا لهم ، بل ودعوة مفتوحة لهم ليؤسسوا ووطنا على غرار لو ملكت ايديهم .

ففي التاريخ القديم « ان الطائفة المارونية شعب مختار اصطفاه الله والجاء الى مناعة جبل لبنان حيث اوكل اليه المحافظة على الايمان الصحيح وكرامة المسيحيين في الشرق » (٥٥) .

وفي التاريخ الحديث ، « ان لبنان من مدعمات وجوده انه الوطن الروحي لجميع الشعوب المسيحية المبعثرة في رحاب هذا الشرق » (٥٦) بحيث يصبح ووطنا لثلاثة : « اللبنانيين المقيمين فيه ، وللبنانيين المتحدرين من اصل لبناني وللمسيحيين العائشين في العالم الاسلامي المحيط » (٥٧) .

ب - المسيحية اللبنانية :

جزء من الحضارة الغربية :

الوجه الثاني لقول الايديولوجية الانعزالية بتوحد الحضارة العربية مع الاسلام، هو قولها بانتماء المسيحية اللبنانية انتماء عضويا الى الحضارة الغربية في المذهب كما في المعتقدات والميول وأساليب الميث ، بما يجعل المسيحيين المشاركة نوعا من الجالية الغربية وسط شرق متخلف فالمسيحية اللبنانية ، اولا هي « النسخ الذي تمر عبره الحضارة الغربية الى داخل العالمين العربي والاسلامي » (٥٨). نظرا لان « حضارة الغرب هي حضارتنا وهذا ما يشكل جزءا من الحقيقة اللبنانية فعندما نقول بان لبنان ملتقى الحضارتين الاسلامية والمسيحية ، فلا نفهم لماذا يجب ان ننسخ عن حضارتنا لكي نؤكد انتماءنا الى هذه المنطقة من العالم » (٥٩) .

منذ الفتح العربي الاسلامي للبنان « (٦٤) .

الوفاد على لبنان هربا « من جوع أو بطالة أو خوف ، حاملا معه المرض والتخلف والانحطاط الخلقي ، ساعيا الى الفدر بأبناء البلد وترويج معتقداته الهدامة « لبنان لا يشكو الا من خطر اغراقه بهؤلاء الذين سيثون الى سويته الحضارية ، فهو بفعل تشريع ابوابه لكل طارئ متشرد قد بات خليطا عجيبا لن يعتمد ان تضيق معه هويته الاهلية وتلاشى شخصيته الذاتية (٧٥) .

فالوقف العربي الرسمي المناهض للايديولوجية الانزالية ، يواجه بتساؤل عنصري : لماذا يعاملنا الاشقاء والشقاق بهذه الغيرة الجارفة ؟ لأن لبنان أقل فسحة من مساحاتهم الصحراوية ؟

ام لان اناس لبنان أقل عددا من ملايين المخلوقات في بلادهم ؟ (٧٦) .

والامة العربية نفسها ما كانت لتنهض من التكايا والدروشة والتخلف ، لولا الاسهام الماروني « التمديني » : « ان الموارنة لو اهلوا شان العروبة ، ولو اشاحوا عن بعثها والنهضة بها أو تركوها في عزلتها قابعة في زوايا المساجد ، لكان هؤلاء الناعقون اليوم ببوق العروبة ، مازالوا في سبيل آباؤهم واجدادهم خانعين في مرضاة سلطان البرين وخاقان البحرين ، تحت رحمة كرباج الباشاويش التركي « (٧٧) .

والمسلم اللبناني متخلف ، كسول ، وفير النسل ، شديد البطر ، « كل ما يقدمه هو النسل الكثير فحسب ، فليس من حقه بالتالي ان يطالب المواطنين الآخرين بتحمل اعباء ذريته ، وما يحتاجون اليه من عناية ورعاية ومدارس وتطبيب وعمل .. « (٧٨) وهو الى ذلك ، مفلق على الحضارة عدواني ، حقود ، يحمل في نفسه بداوه لاتمحي .

ليس في ذلك ما يكفي للتدليل على هذه العنصرية الجارفة ، والتي تجد ان خير ما يستحق هذا « الرعاع » هو ان يقدم نفسه بدا عاملة ، رخيصة في خدمة النظام الرأسمالي محرومة من ابسط الحقوق ، وخاضعة لارقي اشكال القهر ؟

ب - قمعية

عندما تكون الايديولوجية الانزالية ايديولوجية عنصرية ، استعلائية ، « مالتوسية » في حلولها الاجتماعية ، تصبح قمعية بالتعريف . وقمعيته ليست صفة تضاف اليها من خارج ، بل تنبع من مفاهيمها بالذات .

ويكفي ان نقرأ التجربة العيانية لهذه الايديولوجية ، وقد وضعت في حيز التطبيق لنكتشف اية طاقة قمعية تدميرية ، تختزنها ، قمع الطوائف الاخرى ، قمع فقراء الموارنة ، قمع اصحاب الاتجاهات الايديولوجية المغايرة قمع الاقليات في مناطق السيطرة الانزالية وقمع اي تمايز بين القائلين بالايديولوجية الواحدة .

« يجب منع قيام كل حزب او تنظيم او وسيلة اعلام يكون اي منها تابعا لجهة غير لبنانية ، او موجها او مدعوما من قبلها ، وتعمل ضد كيان لبنان وديمومته وتقويض القيم الحضارية التي يؤمن بها « (٧٩) وبكلام آخر : يجب منع اية ايديولوجية لا تتوافق مع الايديولوجية الانزالية .

ج - فاشية

اذ نقول بفاشية هذه الايديولوجية ، فلسنا نقصد النزعة العسكرية الطاغية التي المحننا اليها ، بل نعني الفاشية ، من حيث وظيفتها الاجتماعية

فالشعب اللبناني لدى كمال سليمان الصليبي ، « مجموعة من الطوائف جمع بينها حلف هو اقرب ما يكون الى العقد الاجتماعي ، وتاريخ لبنان منذ القرن الثامن عشر هو في المقام الاول ، تاريخ تطور هذا العقد الاجتماعي واثره على نمو البلاد « (٦٥) خصوصا وان الاتصال بين هذه الطوائف اقتصر « على التعاون السياسي والعسكري ، ولم يتعد الى المجتمع حيث بقيت كل طائفة بمعزل عن الاخرى « (٦٦) لتتشكل بذلك مجتمعات مذهبية ذات شخصيات مستقلة تحرص عليها كل الحرص « (٦٧) او « وجودا اجتماعيا قائما بذاته الى حد كبير « (٦٨) .

يبقى ان هذا التجزؤ الطائفي يشكل ، لدى جواد بولس ، « احد الثوابت التاريخية لهذا البلد « (٦٩) .

هذه الانغلاقية بين الطوائف التي انطوت على تطور كل مجموعة بصورة مستقلة ، دفعت بها الايديولوجية الانزالية نحو اقتصاها بالقول ان ثمة تعددية حضارية ، وفق المنطق الآتي :

ان اللبنانيين ينقسمون الى دينين واثنتين (اثنى اهل السهول واثنية اهل الجبال) . ولما كان الاسلام نظاما متكامل في الشائين الديني والمدني ، ينشئ اسلوبا في العيش وسلما في القيم ، والمسيحية كذلك فقد نجم عن ذلك ان المجموعتين الدينتين قد تميزتا واكتسبت كل واحدة منهما شخصية متماسكة ، غير قابلة للانصهار أو الذوبان .

فالتعددية الاثنية ، الدينية « في الاساس ، وعلى مر التاريخ انعكست تعددية حضارية « (٧٠) واذا كانت التعددية « تتمظهر لسائيا أو دنيا او مذهبا أو اثنيا أو سلاليا أو حضاريا ، فهي في الواقع اللبناني تظهت في ثنائية دينية وبالتالي حضارية (٧١) .

ومن يقر بالتعددية الحضارية يقر بانها تطال كافة المرافق ، « فالجماعات المتعاقبتان في لبنان مختلفتان في كل شيء : من حيث التكوين النفسي والحضاري من حيث أسلوب الحياة ، من حيث النظرة الى قيم المجتمع السياسي ودوره وأهدافه ، ومن حيث التطلعات الوطنية « (٧٢) .

يبقى ان لهذه التعددية محاسن جملة : كونها ذات قيمة حضارية وتقدمية تفوق العروبة ، وتفوق كل القيم ذات البعد الواحد (٧٣) مما يستوجب ان يكرس لها لبنان رسالته الحضارية مستقبلا فينصرف «اولا وأساسا الى تعميم التعددية « (٧٤) .

سماتها

لا شك ان قراءة كالتي فعلنا للمفاهيم الايديولوجية الانزالية تحمل ضمنها كسفا للسمات الغالبة على هذه الايديولوجية . يبقى تنفيرها ، والقاء اذواء اشد سطوعا عليها .

تتصف الايديولوجية الانزالية بأربع سمات ، رئيسية : العنصرية ، القمعية ، الفاشية ، الطائفية ، وان كانت هذه السمات لا تنطبق جميعها بالضرورة على كافة المفاهيم الانزالية ، او يظهر بعضها ساطعا في مرحلة تاريخية معينة ، خافتا في اخرى .

١ - عنصرية - استعلائية

كل من ليس مارونيا بل كل من لا يشاطر اصحاب هذه الايديولوجية ايديولوجيتها ، هو كائن دوني بهذا القدر او ذلك . انه الغريب السوقي ،

في تقديم ابناء البورجوازية الصغيرة محرقة على مذبح الراسمال الكبير ، باسم المصالح الموهومة لهؤلاء وباسم مفاهيم قومية عنصرية ، ومن حيث انها دعوة تقييم تلازما بين النظام الاقتصادي والكيان القومي والعرق .

فالفاشية الاوربية تجمع ، كما يقول جورج لوكاش ، وفي آن معا ، التقنية الاشد تقدما (الاميركية) والايديولوجية الرجعية الاكثر تطورا للراسمالية الاحتكارية في مرحلة الامبريالية : الايديولوجية الالمانية وهي الوسيلة ، في اللحظات الاشد لاحتماد الصراع الطبقي ، لحل مشكلات النظام الراسمالي عبر تحميلها للطبقات الوسطى ، وبايديولوجية تدعي العداء للراسمالية وتستجيب لفظيا ، للقهر الاجتماعي الذي تعانيه البورجوازية الصغيرة التي تنوي استقطابها وحشدها خلفها ، في حين ان عداءها الفعلي يتجه نحو الاشتراكية العلمية وتنظيمها الطبقة العاملة ، سياسيا ، وتقابيا .

من هذا القبيل ، فالايديولوجية الانعزالية في بعض تياراتها فاشية تماما (بشير الجميل خير معبر عن عدائيتها اللفظية للراسمالية) وان كانت الخصوصية البنائية تحتم عليها ان تكون فاشية «طائفية مسيحية» عاجزة عن توحيد البورجوازية المسيطرة بكل طوائفها حولها ، وعاجزة عن توحيد جمهور الطبقة الوسطى والبورجوازية الصغيرة ، المتنوع الانتماءات الطائفية خلفها .

ان وظيفتها الرئيسية ، في الاطار اللبناني ، تتحدد في تجنيد الطائفة المارونية برمتها ، وقرائها في الطليعة دفاعا عن نظام الاستغلال الراسمالي الذي ينتج الازمات الاجتماعية التي تصيب الطبقات الوسطى داخل الطائفة ، وذلك عبر توجيه نعمتها كطائفة نحو عدو خارجي وتحميله مسؤولية التردى في الازمات الاجتماعية (السوريون - الفلسطينيون . .) وانها به حمل مشروع اباداة الطائفة واخضاعها للقهر . انها تدفع فقراء الطائفة للقتال دفاعا عن النظام الطائفي - الطبقي القائم ، بعد ايهاهم ايديولوجيا (والايديولوجية ذات اهمية فائقة لدى اية دعوة فاشية لكلمة بديلة تجمع المصالح الاقتصادية المتضاربة) بانهم يدافعون عن وجودهم ومصيرهم في وجه الغريب ، وليس ادل على ذلك من كون فقراء الموارنة ابناء الطوائف الاشد حرمانا هم الذين يشكلون العمود الفقري للجهاز القتالي لدى الاحزاب الفاشية .

ان فاشية الايديولوجية الانعزالية « ترمي الى صرف انظار الجماهير عن الاسباب الحقيقية لبؤسها الاقتصادي والاجتماعي ، وخلصا ذلك ان هذا البلد يختلف عن سائر بلدان العالم بأنه معصوم عن المشاكل ، بأنه موطن معجزة اقتصادية ، وبالتالي فان اي اضطراب في حياته الاقتصادية لا يعود الى اسباب داخلية ، انما هو نتاج مؤامرة خارجية . انها مسؤولة الغريباء الذين يريدون شرا بلبنان » (٨٠) .

طائفية

والايديولوجية الانعزالية طائفية حيث انها في منطلقها الاول ، نظرة الى الانسان تحده وفق انتمائه الطائفي فقط وتنطاطى معه على هذا الاساس .

الانسان يولد في طائفة ، ينمو وسط مناخها ، تحدد له نظرتة الى العالم ، موقفه من الشؤون الاقتصادية والايديولوجية ، والناس لا ينقسمون في الاصل الى فئات اجتماعية ذات مصالح اقتصادية ، تتحرك انطلاقا من

هذه المصالح ، بل الى وحدات طائفية متماسكة ، تعيش انشطارا ابديا . والطائفة وحدة سكنوية متجانسة ، لاتناقض وسطها ، مصلحة فقرائها هي عينها مصلحة الراسماليين داخلها . واذا كنا نوقفنا امام هذه السمات الاربع فاختيارا لبرزها لاعرضا لجمعها ، حيث ان الفيشية والمثالية الرجعية والنزعة نحو التضخيم الكاريكاتوري للذات (نظرية اللبناني الذي يطحن الصخور . . .) تشكل سمات لا يجوز اغفالها .

سجل اولى

مع المفاهيم الانعزالية

خلال عرضنا للمفاهيم التي تشكل مفاتيح الايديولوجية الانعزالية ، اجرينا سجالا مع بعضها ، وارجانا الرئيسي منها لسجل اولى نغرد له هذا الجزء الاخير ، دون ان نطمح في استيفائه .

١ - التعددية الحضارية

لسن يتسع المجال ، هنا ، لسجلان تفصيلي يدقق في الاطروحات الانعزالية حول هذه المسألة . لذلك تقتصر على العناوين العريضة .

الحضارة ، في تعريف معظم العلماء ، هي النتاج الشامل للمجتمع ككل ، تشمل المعارف اليدوية والذهنية والعادات والتقاليد والاخلاق والتنظيمات وسائر وجوه الحياة « فكل ظاهرة تدخل في حركة المجتمع هي ظاهرة حضارية تستوى في ذلك الصنائع والافكار » (٨١) .

وعندما نأخذ بهذا التعريف ، ونحاكم في ضوءه الواقع اللبناني ، نخرج باستنتاج مؤداه ان اللبنانيين ، على تنوع انتماءاتهم الطائفية ، ينتمون الى حضارة واحدة هي الحضارة العربية وان كانت كل طائفة تملك سمات خاصة بها ، هي نتاج الظروف التي رافقت تطورها التاريخي والواقع الذي احتلته على المستوى الاقتصادي ، وبعض التقاليد الاجتماعية الخاصة .

فاذا كان صحيحا ان الموارنة عرفوا على مر الاجيال بالجرأة والاندفاع والنزعة الفردية ، وان ابناء الطائفتين السنية والمليكية في لبنان اختلفوا عن الشيعة والدروز والموارنة في انهم سكان مدن (٨٢) واذا كان صحيحا ان كل طائفة اكتسبت خصائص تميزت بها عن سواها : من ذلك ان البيئة الجبلية جعلت من الدروز والشيعة والموارنة قوما ذوي عصبية عشائرية . ونمت فيهم الفردية الجامحة - كما جعلت منهم مزارعين نشيطين (٨٣) واذا كان صحيحا ان ثمة تقاليد اجتماعية خاصة بابناء الطوائف المسيحية ، تقابلها الاخرى ، غير ان كل هذه الملامح لاتبيح القول ان ثمة حضارتين متميزتين ينتمي اليها اللبنانيون .

فاللغة واحدة ، والادب والفنون مشتركة ، والمفاهيم الاخلاقية متقاربة الى حد كبير ، والمعارف اليومية شائعة بالمقدار نفسه ، والعادات والتقاليد متشابهة ، ومتمايزة بمقدار ، والفلكلور مشترك .

ولو القينا نظرة عجلية على شهادات المستشرقين الاجانب والرحالة الذين زاروا لبنان ، لتبين لنا اجماعها على اعتبار ان ثمة عادات وتقاليد مشتركة عند جميع اللبنانيين ، او تأكيدها على ان الفروق القائمة تعود في اسبابها الى غير عامل الدين .

فالدكتور لويس لورته (١٨٣٦ - ١٩٠٩) الذي زار لبنان وسوريا

بين عامي ١٨٧٥ و ١٨٨٠ كتب يقول « ويقوم في ضواحي بيروت شعبان من جنسين جد متجاورين في دينين مختلفين ، استرعيا انتباه أوروبا بهما أشد الانتباه ، وهما الموارنة والدروز . يؤلفان فرعين لا يختلفان الا قليلا عن مجموعة العرب المتحضرة الكبرى (٨٤) .

والكتاب الذي نشرته لجنة من الادباء في عهد المتصرف اسماعيل حقي بك ، يرد فيه تحليل اجتماعي للاختلاف في العادات والتقاليد بين اللبنانيين لا صلة له بالدين ، حيث يقول « ان الباحث يمكن ان يقسم الاخلاق الى نوعين ، فاخلاق القسم الجنوبي من لبنان اشبه باخلاق العرب المتحضرين اذ يكثر فيها الدرروز والمسلمون والنصارى الموارنة ، فهم يحرصون على الجوار ويتكاثرون على الجميل ويحافظون على العهود والوفاء ، والكرم وعدم الصبر على الضيم ، وفيهم حدة المزاج غالبا والعناد والاباء والتحزب واخلاق القسم الشمالي يكثر فيها لين الاخلاق وخفض الجناح مع الحرص والاقتصاد والتساهل . وبامتزاج الاصول لا تكاد تميز الآن هذه الفروق في كثير من الفريقين » (٨٥) .

اذن ، ثمة تمايزات طفيفة ، عرضية تجعل منها الايديولوجية الانعزالية « سمات اثنية ثابتة لا تتبدل ، في حين انها في الواقع سمات اجتماعية لبني تتطور وتعدل وفق العوامل البنوية الفاعلة ، وهي عوامل ترتبط بالتطور الاقتصادي ، وبمسار هذا التطور وطبيعته الانمائية ، ومدى انخراط المناطق والطوائف فيه » (٨٦) .

إن القول بهذه السمات ، وتعيين العوامل التي اسهمت في توليدها شيء ، والارتقاء بها الى مستوى الثوابت غير القابلة للتبديل واتخاذها مؤشرا على تعددية حضارية ، شيء آخر مناقض بالكلية .

يبقى سؤال ، رئيسي : هل تؤمن الايديولوجية الانعزالية فعلا بالتعددية الحضارية ؟ اي هل ترضى للمسلمين ان يعيشوا وفق القناعات التي تحددها لهم « حضارتهم » ؟ هل تؤمن بحقهم في التمايز ، وهل تتعاطى مع « الحضارتين » بالقدر نفسه من الاحترام ؟

ان الادبيات الانعزالية ، فضلا عن الممارسة ، تقدم جوابا . فالتعددية الحضارية اسم مزور للتفوق الحضاري ، مقولة ايديولوجية تخفي استعلاء حضاريا وشعورا بالتفوق .

٢ - في الاسلام

ان اي تعاط مع الاسلام ، بوصفه نسا جامدا ، هو تعاط غير تاريخي ويقع في دائرة التزوير . فالاسلام ، اولا ، تنظيم ايديولوجي وسياسي واقتصادي ، يتلون بتلاوين الفئة الاجتماعية التي تحمله ، ويكتسب وجهه من خلال الموقع الاجتماعي الذي تحتله هذه الفئة . فهناك فهم رجعي للاسلام ، وفهم تقدمي ، في عصور الاسلام الاولى كما اليوم ، فهم « المستضعفين في الارض » ، وفهم اصحاب الرساميل ، فهم ينهض به قوة تغير ، وفهم يقدمه اطارا لشيوع الفكر الغيبي التخديري ، الخرافي .

وما من مرة ، في التاريخ الاسلامي ، الا وعرفت التفريعات الاجتماعية والسياسية كيف تعبر عن نفسها ، من داخل الاسلام نفسه ، تطوعا للتشريع ، وطرقا لباب الاجتهاد .

والاسلام كنصوص فقهية ، وكنظرة الى العالم ، ليس مسؤولا عن التخلف ، ولا هو في اساسه . ان التفتيش عن اسباب التخلف يستحيل ان يكون خارج البحث التاريخي في البنى الاجتماعية والاقتصادية التي

كانت قائمة وفي طبيعة الفئة الحاكمة ومواقعها الطبقيه ، وفي علاقة العوامل الداخلية بالعوامل الخارجية المتمثلة بالاستعمار ، بشكله القديم والحديث .

فالحضارة الاسلامية في عصورها الاولى كانت من ازهى الحضارات فهي قد افادت الغرب من علومها في شتى الميادين ، بعدما حضنت النصب الاكبر من التراث القديم ، وامدته بالحياة . وبالتالي فلا مناص من التخلف عن هذا الازدهار الذي نبديه للشعوب الاسلامية المعاصرة لنا بحكم تضاؤل قد يكون عابرا (٨٧) .

والاسلام لم يكن « سببا للجمود او القسوة او العصبية او انقطاع التقدم الاجتماعي ولا لسجن الفكر . وفي كل حال ليس أكثر من اي ايديولوجية اخرى » (٨٨) .

ان الايديولوجية الانعزالية ، في موقفها من الاسلام ، تسترجع صدى كتابات المستشرقين في العصر الكولونيالي ، في اواخر القرن التاسع عشر ، كنا ظننا انها انطوت الى غير رجعة ، فادبيات الكسليك تكرر ، على نحو حرفي ، ما جاء على لسان ارنست رينان في محاضرات له شهيرة القاها في ٢٩ آذار ١٨٨٣ في السوربون تحت عنوان « الاسلامية والعلم » حيث حمل الاسلام مسؤولية تحويل المؤمن به الى « كائن منفلق عن العلم تماما » عاجز عن تلقي اي شيء ، او الانفتاح على اية فكرة جديدة ، واصفا الاسلام بأنه « السلسلة الاثقل التي حملتها الانسانية حتى اليوم » كما تستلهم كتابات الاب اليسوعي هنري لامنس الذي لم يخطيء المستشرق السوفياتي ، بلبايف ، حين اعتبر انه « في تضاعيف كتاباته ، وفي نشاطه التعليمي ، يظهر التعصب الديني الاعمى ضد الاسلام » (٨٩) .

الى جانب هذين المرجعين المشبعين بروح التبشير الاستعماري ، تلجأ الايديولوجية الانعزالية ، وبانتقائية مقصودة ، الى ترسانة الفكر الاسلامي الرجعي ، مكتوبا باقلام سلفية ، لتؤكد رأيا في الاسلام .

ان الايديولوجية الانعزالية « تحتاج » الى اسلام متخلف يبررها ويمنحها مصداقية . ترتاح اليه بوصفه يؤمن توالدها وازدهارها ، وليس ما يكسب الايديولوجية الانعزالية لونا من المنطق ، والتماسك والبرر التاريخي والراهن ، ويجعلها تبدو المتحدثة الوحيدة بلغة الواقع ، اكثر من اسلام يعيش ، ركودا فكريا ، ويقدم نفسه بؤرة لتوالد تيارات من التعصب والسلفية .

وما يصح في المجال الايديولوجي ، يصح بالمقدار نفسه في المجال السياسي ، حيث تبحث الجبهة الانعزالية عن معادل اسلامي لها ، يوفر سندا لايديولوجيتها الطائفية .

٣ - في اضهاد المسيحيين

ليس صحيحا ، من الوجهة التاريخية المحضة ، ان التاريخ العربي هو تاريخ علاقة صراعية دائمة بين الفاتحين العرب والمسيحيين في المشرق العربي ، وتاريخ اضهاد المسيحيين بفعل انتمائهم الديني فحسب .

فالؤرخون الانعزاليون انفسهم لم يقدموا على اطلاق حكم قيمي مطلق كهذا ، وعمدوا الى التمييز بين عصر اسلامي وآخر فاتهموا بعض الخلفاء باضهاد الاقليات المسيحية ، وامتدحوا تسامح البعض الآخر ، ومؤلفات جواد بولس ، فيليب حتي ، يوسف السودا ، وكمال سليمان الصليبي تحمل عشرات الادلة على ذلك .

ثم ان كتابات جامعة الروح القدس في الكسليك نفسها ، تقرّ في بعض المواضع ، « بأن الصفة الحضارية الاولى للموارة تقوم فعلا على قبولهم العيش المشترك مع الطوائف بلا استثناء ، والنجاح الفعلي لتجربتهم هذه ، بالرغم من وجود بعض الانتكاسات التاريخية المفتعلة » (٩٠) .

فالمسيحيون ، في كثيرهم ، لم يقاوموا الفتح العربي ، بدليل « ان الفساسة على حدود سوريا واللخمين على حدود العراق ، وهؤلاء من القبائل العربية ، قد سهلوا مهمة الفاتحين » (٩١) ، وان « سكان لبنان وهم ساميون ، وسكان مصر ، وهم حاميون ، اعتبروا العرب الفاتحين من ابناء جنسهم يربطهم بهم ما لا يربطهم بأولئك الحكام الفاصيين » (٩٢) .

ففي معركة اليرموك ، كما يؤكد اسد رستم « انسحبت القبائل المسيحية من معسكر الروم وامتنعوا عن القتال وجاء هذا الانسحاب في صالح المسلمين » (٩٣) وفي تسرين شرق انطاكية ، يؤكد فؤاد قازان ان بعض آل تنوخ وصالح قد اسلموا « حتى ان انطاكية لم تقاوم بسل بقيت مسيحية وصالحت المسلمين مقابل الجزية » (٩٤) ويذهب لبيبايف الى القول « ان القبائل العربية التي نزحت عن الجزيرة العربية قبل الاسلام واستوطنت سوريا واعتنقت النصرانية دينا ، بادرت الى الاشتراك في المعارك الى جانب العرب الفاتحين ، ونخص بالذكر القبائل المنتصرة في سوريا وفي شرقي الاردن ، والتي لعبت دورا عسكريا وسياسيا هاما في القرن الاول للهجرة » (٩٥) .

اما الاضطهاد الذي لحق ببعض المجموعات المسيحية في حقبة تاريخية متفرقة ، فلم يلحق بها وحدها ولا اصحابها بسبب انتمائها الديني فقط .

فالتوكل شمل اضطهاده ، كافة الملل من المعتزلة الى الفاطمية ، وهو من دمر ضريح الحسين في كربلاء والماليك قتلوا من الاسماعيليين والنصيرية والشيعية عددا كبيرا ، فضلا عن ان الحملات المملوكية على كسروان ، وفي القرنين الثالث والرابع عشر ، ابادت آفا من الشيعة والدروز فكان بدء الجلاء الاسلامي عن منطقة كسروان باتجاه المقاطعات الجنوبية .

والمراجع التاريخية ، من جهتها ، تثبت ان واحدا من الاسباب الرئيسية للحملات التي وجهت ضد بعض التجمعات المسيحية ، كان اتهام الدولة الاسلامية لها بمساندة الصليبيين وامتدادهم بالعمد المادي والبشري ، وبما يجعل الحملة لونا من الوان العقاب السياسي ينزل بمجموعة دينية بفعل مواقفها السياسية في الاساس .

هل نريد ، من ذلك ، ان نقول ان المسيحيين لم يتعرضوا ، خلال الحكم الاسلامي ، لاي اضطهاد ؛ او ان مشكلة الاقليات ، في الوطن العربي ، مشكلة مفتعلة ولا اساس لها تاريخيا او حاضرا ؟

كلا ليس ذلك قصدا ، ولن نرد على قراءة ايديولوجية للتاريخ بقراءة ايديولوجية معاكسة . بل نريد ان نقول امرين :

١ - ان الدونية السياسية التي عاشها المسيحيون ، خلال عصور الحكم الاسلامي ، بوصفهم من اهل الذمة ، وفي كنف الاسلام وحمائمه ، يجب الاتني مجموعة من الحقائق ، في طليعتها ان التسامح الذي ابداه الحكم الاسلامي حيال اهل الذمة ، شكل موقعا متقدما ، بمقاييس تلك الحقبة التاريخية التي لا يجوز محاكمتها وفق معايير حديثة ، ومطالبة انظمة الحكم التي قامت يومها بتطبيق مفاهيم في الديمقراطية السياسية

والاجتماعية لم تكن شائعة ولا معروفة ، وما كان ممكنا لها ان تسود ، اذا اخذنا في الاعتبار درجة التطور السياسي التي عرفتتها تلك المجتمعات وانظمة السلطة فيها .

٢ - ان الحل الذي تقدمه الايديولوجية الانعزالية لمشكلة الاقليات ، لن يكون من شأنه الا تازيم اوضاعها وتعريضها لالوان من القهر والاضطهاد .

نعم ان ثمة مشكلة فعلية هي مشكلة اقلية مذهبية وعرقية تحفظ في ذاكرتها الجماعية ذكريات اضطهاد عرفته او تميز عانته وجعلها ، في المحصلة الاخيرة تعيش دونية سياسية :

ثمة اقلية غير منخرطة في نسيج الحياة العربية ، تعيش منعزلة داخل قناعاتها السياسية ، يتطلع بعضها ضمنا الى حماية اجنبية ، تعيش مركبات وعقد الخوف من الطغيان عليها ، تسعى الى ضمانات سياسية ومادية تميزها ، وليس جائزا في اي حال تجاهلها او اعتبار مخاوفها بلا اي اساس مادي او ضربا من الهلوسات والارهام الجماعية ليس الا .

لكن « الحل » الذي تعرضه الايديولوجية الانعزالية ، هو بالتعريف حل انتحاري ، يعمق المشكلة بعيد انتاجها على نحو اوسع ، ويهدد المصير المادي للاقليات نفسها :

- ترد على للخوف في اوساط الاقليات ، بعرض مشروع التحكم الاقلي ، القمعي عبر القوة العسكرية المحضة ، وعبر حكم المؤسسات الحافظة والمكرسة لهذا التحكم ، وهي بذلك تقدم اقصر الطرق لتجدد المذبح الاهلية ولتعريض الاقليات لاشكال من القهر والابادة .

ان التناحر العدائي مع المحيط لا يحمل خلاصا للاقليات ، بل لعله قاعدة توليد مذابح اهلية ، وبوتيرة منتظمة . واذا كان من امثلة لتاريخ الاقليات في المشرق العربي ، فهي هذه : كلما تمايزت الاقلية وشاءت في تمايزها ان تحمي نفسها وتحفظ مصيرها كلما عرضت نفسها لمزيد من احتمالات القهر . كلما طالبت بحماية الاجنبي ، وربطت مصيرها به كلما باتت اكثر اكتشفا لانتقام الاكثرية ، وكلما عززت فرص قمعها .

- تجنيد الاقلية للدفاع عن النظام الطائفي - الطبقي الذي ينتج ازمتها ، ولتعطيل فرص قيام نظام ديمقراطي علماني يحمل وحده فرصة حل مشكلة الاقلية ، اذ يرفع عنها صفة الاقلية اساسا ويحرر المجتمع من قانون الصراع بين اقلية واكثرية طائفتين ، مؤسسا لقوانين صراع غير طائفية .

- تعرض عليها الخيانة الوطنية والقومية ، عبر الارتباط باسرائيل كسبيل وحيد الى الاستقواء على المحيط الاكثري ، بما يوحد موقع الاقلية المسيحية مع العدو ، ويجعل منها امتدادا له في داخل المجتمعات العربية . وعندما تضع الاقليات المسيحية نفسها في هذا الموقع ، فان في ذلك دعوة مفتوحة ليمارس بحقها الاضطهاد السياسي والديني ولتجري معاملتها بوصفها اقلية خائنة او تنطوي على احتمالات خيانة دائمة .

الى جانب تعميقها مشكلة الاقلية المسيحية وتحويلها الى عنصر تفجير دائم ، فان الايديولوجية الانعزالية ، موضوعة في حيز التطبيق تؤول الى تفتيت البلد وتقسيمه على كافة المستويات ، فضلا عن انها عامل الفناء لاستقلاله ، وتحويل له الى جرم صغير في فلك الكيان الاسرائيلي ، معدوم الارادة الوطنية خاضعا للاحتلال الفعلي .

انها ، مرتسمة على ارض الواقع ، فعسل تدمير للوطن حتى تبقى الطائفة ، وفعل استدعاء للانتداب فيما هي تدعي صونا للاستقلال .

ولكن اذا كان الحل الذي تعرضه الايديولوجية الانعزالية تدميريا الى هذا الحد ، فما هو الحل البديل الذي توفره الانظمة العربية القائمة لمشكلة الاقليات المتزايدة حدة في الوطن العربي ؛ بل وقبل ذلك ينهض سؤال اسبق : اليس ثمة من مسؤولية تقع على عاتق الفكر السياسي العربي السائد في تقديم كل المبررات لانتشار الايديولوجية الانعزالية ونجاحها في تضليل قسم من الجماهير المسيحية ؟

بلى . لنخرج ، هنا ، من دائرة السجال الاحدى الجانب مع الايديولوجية الانعزالية لنلقي ضوءا على الايديولوجية الاسلامية السائدة ، وعلى الواقع الراهن الذي تمشه حركة التحرر العربية ، واثر ذلك كله في توفير المناخ المناسب لتعميم هذه الايديولوجية على شطر من ابناء الطائفة المارونية .

ان مشكلة الاقليات ، في العالم العربي ، هي اولا جزء من ظاهرة عدم الاندماج القومي في المجتمعات العربية ، هذه المجتمعات التي تستنقع في انشطاراتها المذهبية والاقليمية والعشائرية والعرقية السابقة على الوحدة القومية . ثمة تجزئة داخل كل قطر عربي هي اشد خطرا من التجزئة الاستعمارية للامة العربية واكثر مدعاة وتطلبا لمشروع وحدوي يحقق الانصهار القومي ويخرج الامة من تبعثرها وتناثرها .

ومشكلة الاقليات ، ثانيا ، هي نتاج نقص حاد في الديمقراطية السياسية والاجتماعية في المجتمعات العربية ، تلك الديمقراطية التي لا يجوز اعتبارها مطلبا اقلويا كما يتبادر الى البعض - بل حاجة من الحاجات الحيوية للاكثرية نفسها ، حتى تلعب دورها الفعلي في الحركة القومية ، حتى تستعيد حضورها ، بعدما خضعت طويلا للقهر والتهميش .

ومشكلة الاقليات ، ثالثا ، هي واحدة من نتائج تخثر الحركة القومية ضد الاستعمار وسطيته ، ترددها ، مراوحتها ، الامر الذي لم يستدع لدى الانظمة العربية التي تقود هذه الحركة انفتاحا جديا وشاملا على الاقليات العرقية والمذهبية ، استنفارا لها ، وتوظيفا لطاقتها في الحركة الامر الذي استبقاها خارج دائرة المواجهة .

لم ينهض ذلك النظام العربي الذي ، اذ يخوض مواجهة جذرية وقاطعة مع الامبريالية ، يجد نفسه ملزما باطلاق حركة ديمقراطية سياسية واجتماعية تطال كافة طوائف المجتمع وفئاته ، توفر حرية التنظيم السياسي والنقابي لاوسع الجماهير ، وتستند اليها في خوض المواجهة المديدة .

وبهذا المعنى فان انتعاش الايديولوجيات السلفية لدى الاقليات او بروز مشاريع سياسية معادية للطموح العربي الوطني لدى بعضها . هو التعبير الاجل عن أزمة حركة التحرر العربية نفسها ، يكشف وسطيتها الايديولوجية ، مساومتها مع الايديولوجية الرجعية . وتعايشها معها .

الى جانب ذلك كله ، فان مشكلة الاقليات تتغذى من سيادة وعي ايديولوجي سلفي لدى الجماهير الاسلامية ، كما لدى العديد من تنظيماتها السياسية . ان السلفية واللاعقلنة والظلامية السائدة ودخول الامة عصر التكايا والدروشة ، وانهاز الاتجاهات الليبرالية ، التحديثية هي عناصر تعميم للايديولوجية الانعزالية ، تجعلها تبدو وكأنها المعبرة الفعلية عن مصالح ابناء الطائفة المارونية .

في مواجهة هذا الواقع ، اين يقع الخلاص الفعلي ؟ ينبغي الاعتراف ، اولا ، بوجود مشكلة راهنة هي مشكلة الاقليات . كانت قائمة على امتداد التاريخ العربي الحديث ، وهي اليوم اشد راهنية . وينبغي ، ثانيا ، تولد قناعة بان حل مشكلة الاقليات يقع في يد الاكثرية . ان الاقلية لا تحمل خلاصا لمشكلتها من داخلها .

وسلوك الاكثرية حيال الاقلية يحدد ، بدرجة كبيرة ، الخيار السياسي الذي تأخذ به هذه الاخرية ، ويشكل اما مدخلا الى الحل ، او الى مزيد من التآزم .

تأسيسا على هذه المنطلقات فان الحل الاخير لمشكلة الاقليات يتمحور حول مفصلين :

- الاخذ بالديمقراطية السياسية والاجتماعية والاقتصادية بديلا عن القمع ، عاريا او مستترا ، بوصفها صمام الامان الوحيد لمنع الاقتتال والاحتكام الى العنف واطار للتطور .

- اعتماد العلمنة بديلا عن الانظمة الطائفية او شبه الطائفية ، اعتبارا منا بان العلمنة الكاملة هي الكفيلة بمنع انتاج عوامل التمايز الطائفي ، وتوحيد المجتمع توحيدا قاعديا يلغي البؤر الاجتماعية التي تتولد فيها الطائفية .

ان العلمنة ، اذ تقيم الاعتبار للمواطنين بوصفهم مواطنين فقط ، لا ابناء طائفة ، اكثرية كانت ام اقلية تحرر الاقليات من توجسها ، وتقطع الطريق على اي طغيان اكثرى .

بالديمقراطية والعلمنة نخرج من « كوفندرابية الطوائف » نحو المجتمع الموحد ، حيث تذوى الايديولوجيات - الماضية ، اتسمى اصحابها كتائب او اخوانا للمسلمين ، او جماعة تكفير وهجرة .

المراجع :

- (1) ز . ي هرشلاغ . مدخل الى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الاوسط ، دار الحقيقة بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٢٧ .
- (2) المرجع نفسه . ص ٣٧ .
- (3) د . وجيه كوثاني . اشكالية الدراسة التاريخية للثقافة الوطنية . دراسة منشورة في كتاب « الثقافة الوطنية في لبنان على خط المواجهة » دار الطليعة ١٩٧٩ ص ٢٥ .
- (4) فيليب حتي . تاريخ لبنان ، دار الثقافة . بيروت . الطبعة الثانية ١٩٧٢ . ترجمة انيس فريجة ص ٤٤٤ .
- (5) جواد بولس . تاريخ لبنان . دار النهار للنشر ١٩٧٢ ص ٢٥٢ .
- (6) د . وجيه كوثاني . لبنان ، تونه التاريخي في اطار التجزئة الاستعمارية للمشرق العربي . دراسة منشورة في كتاب « لبنان الحضارة الواحدة » بيروت ١٩٧٧ ص ٦٥ .
- (7) د . شوفالييه . مجتمع جبل لبنان ابلان الثورة الصناعية في أوروبا . باريس ١٩٧١ ص ١٩ .
- (8) د . نقولا زيادة . ابعاد التاريخ اللبناني الحديث - جامعة الدول العربية ، بيروت ١٩٧١ ص ١٥٧ .
- (9) المرجع نفسه ص ١٤٥ .
- (10) البرت حوراني . الفكر العربي في عصر النهضة . دار النهار للنشر . بيروت ١٩٧٧ ص ٧٩ .
- (11) (١٢٤١٢١١) د . نقولا زيادة . ابعاد التاريخ ... مرجع مذكور ص ١٦١ .

- (٢٤) د. كوتراني . لشكالية الدراسة التاريخية ... مرجع مذكور ص ٢٩ .
- (١٥) عفيف فراج . الادب في للثقافة الوطنية . دراسة منشورة في كتاب « الثقافة الوطنية في لبنان على خط الواجهة » مرجع مذكور ص ١٧٠ .
- (١٦) للتوسع في هذا المجال يمكن مراجعة النتاج الادبي المنشور في ملفات « الممسلم » الشهرية (جورج شامي ، جوزف الهاشم ...) و « رسائل من خلف التراس » لمصطفى جحا « وابو لبنان وستين حرب » ليونس الابن ، (واشتملت النار » لجوزف اليان ، « وحرب الراية » سلسلة منشورات دار « العمل » كما يمكن مراجعة مقالة جورج ناصيف « تجليات الايدولوجية الطائفية في الثقافة » منشورة في « الثقافة الوطنية في لبنان على خط الواجهة » مرجع مذكور ص ٩٥ - ١٠٢ .
- (١٧) ويلهام وليش . ما الوعي الطبقي . دار الطليعة . بيروت ١٩٧٤ ص - ٥٠ .
- (١٨) بطرس ضو . تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري دار النهار للنشر بيروت ١٩٧٠ جزء ١ - ص ٣٩٠ .
- (١٩) المرجع نفسه جزء ٥ ص ١٢ .
- (٢٠) المرجع نفسه . جزء ١ ص ٣٩١ .
- (٢١) المرجع نفسه . جزء ١ ص ٢٨٩ .
- (٢٢) جواد بولس . تاريخ لبنان . مرجع مذكور ص ٢١٥ .
- (٢٣) المرجع نفسه ص ٢١٥ .
- (٢٤) بطرس ضو . تاريخ الموارنة ... جزء ١ ص ٣٩٨ .
- (٢٥) المرجع نفسه ص ٣٩٨ .
- (٢٦) المرجع نفسه ص ٤٠١ .
- (٢٧) المرجع نفسه ص ٣٩٩ .
- (٢٨) المرجع نفسه ص ٤٠٥ .
- (٢٩) عفيف فراج . دراسات يسارية في الفكر الجيني . دار الطليعة . بيروت ١٩٧٠ ص ٢٠ .
- (٣٠) محلل العمل السياسي مقررات خلوة زغرنا بين التكتيك والستراتيجية « ملف العمل الشهري » رقم ٩ - ١٩٧٨ ص ١٣٦ .
- (٣١) جواد بولس . تاريخ لبنان ص ٢٢٣ .
- (٣٢) المرجع نفسه ص ٢٠ .
- (٣٣) فيليب حتي . تاريخ لبنان . ص ٩ .
- (٣٤) الاسلام السياسي ، وهوية لبنان ، سلسلة « القضية اللبنانية » رقم ١٤ آب ١٩٧٦ ص ٤ .
- (٣٥) فيليب حتي . المرجع نفسه ص ٨ .
- (٣٦) شارل مالك . لبنان في ذاته . مكتبة التراث اللبناني . بيروت ١٩٧٣ ص ١١ .
- (٣٧) لبنان المستقبل من الانهيار السياسي الى الانشطار النفسي والجغرافي - سلسلة « القضية اللبنانية » رقم ١٢ ص ٢٥ .
- (٣٨) المرجع نفسه ص ٨ .
- (٣٩) انطوان نجم . مناقشات ندوة « الانتفاضة اللبنانية » ملف العمل الشهري رقم ١ آذار ١٩٧٧ ص ١٧٩ .
- (٤٠) دراسة تحليلية . لواقف السلمين اللبنانيين من الحرب اللبنانية - الفلسطينية منذ نيسان ١٩٧٥ « سلسلة القضية اللبنانية » رقم ١٧ ص ١١ .
- (٤١) ورقة الكتاب في خلوة سيدة البير . ملف العمل الشهري رقم ١ آذار ١٩٧٧ ص ٨٤ .
- (٤٢) للتوسع في هذا المجال راجع مذكرة المؤتمر الدائم للرؤساء العامين للرهبايات اللبنانية والرابطة المارونية الى النواب ٧٥/١١/٣ سلسلة القضية اللبنانية .
- (٤٣) لبنان المستقبل من الانصهار ... مرجع مذكور ص ٣٠ .
- (٤٤) الاسلام السياسي وهوية ... مرجع مذكور ص ٤١ .
- (٤٥) المرجع نفسه ص ٣٠ .
- (٤٦) امين ناجي . شرعة من اجل ميشاق وطني جديد . المطبعة الحديثة . بيروت ١٩٧٩ ص ٢١ .
- (٤٧) تقرير الامانة العامة في خلوة دار « العمل » الكتابية . ملف « العمل الشهري رقم » حزيران ١٩٧٧ ص ٧٠ .
- (٤٨) تقرير بيار الجميل في مؤتمر حزب الكتائب ال ١٧ المنعقد في برمانا ١٩٧٤ ملف العمل الشهري رقم ١ آذار ١٩٧٧ ص ١٨ .
- (٤٩) فؤاد افرام البستاني « مار مارون » منشورات المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٦٥ ص ٧١ .
- (٥٠) بطرس ضو . تاريخ الموارنة .. مرجع مذكور ص ٤٥ .
- (٥١) الاب بولس نعمان . ندوة المارونية ولبنان ١٩ ايار ١٩٧٤ في معهد الرسل منشورة في النشرة التي تصدر عن اللجنة الاسقفية لوسائل الاعلام الاجتماعي في لبنان رقم ١٠ - ١٥ حزيران ١٩٧٤ ص ١٠ .
- (٥٢) المرجع نفسه ص ١٠ .
- (٥٣) امين ناجي . شرعة من اجل ... مرجع مذكور ص ٣٩ .
- (٥٤) شارل مالك . ندوة المارونية ولبنان مرجع مذكور ص ٢٧ - ٢٩ .
- (٥٥) كمال سليمان الصليبي . الموارنة : صورة تاريخية ص ٢٥ .
- (٥٦) ادوار حنين . ندوة المارونية ولبنان مرجع مذكور ص ٢٠ .

الثقافة الجديدة

مجلة فكرية ابداعية عربية

تصدر في المغرب

تشرف عليها جماعة من المثقفين التقدميين المغاربة

المدير المسؤول : محمد بنيس

الاشتراك في الدول العربية وأوروبا ٥٠ درهما أو ما يعادلها

اشتراك المؤسسات المساندة ١٥٠ درهما أو ما يعادلها

العنوان : ص.ب ٥٠٥ المحمدية - المغرب

صراحة

روايات وقصص
د. سهيل ادريس
في طبعة جديدة:

الحبي اللاتيني

(الطبعة السابعة)

الخدق الغميق

(الطبعة الثالثة)

اصابعنا التي تحترق

(الطبعة الثالثة)

قصص سهيل ادريس

في جزئين:

اقاصيص اولى

اقاصيص ثانية

منشورات دار الآداب

- (٥٧) مذكرة الجبهة اللبنانية الى الشخصيات السياسية العالية . ملف العمل الشهري رقم ٣ أيار ١٩٧٧ ص ٧٢ .
- (٥٨) محلل العمل السياسي . مقررات قمة زغرنا ... مرجع مذكور ص ١٣٦ - ١٣٧ .
- (٥٩) بيار الجميل . مقابلة منشورة في ملف العمل الشهري رقم ٤ حزيران ١٩٧٧ ص ١٦٠ .
- (٦٠) أمين ناجي . شرعة من أجل ... مرجع مذكور ص ٣٠ .
- (٦١) شارل مالك . لبنان في ذاته . مرجع مذكور ص ١٥ .
- (٦٢) مذكرة الجبهة اللبنانية الى ... مرجع مذكور ص ٧٦ .
- (٦٣) المرجع نفسه ص ٧٢ .
- (٦٤) سليمان تقي الدين . الثقافة الوطنية في لبنان على خط المواجهة ، مرجع مذكور ص ٧ .
- (٦٥) كمال سليمان الصليبي . تاريخ لبنان الحديث . دار النهار للنشر ١٩٧٨ ص ٢٨ .
- (٦٦) المرجع نفسه ص ١٤ .
- (٦٧) شارل مالك . لبنان في ذاته . مرجع مذكور ص ٦٠ .
- (٦٨) محلل العمل السياسي . لبنان الجديد . منشورات دار العمل ١٩٧٦ ص ٤٦ .
- (٦٩) جواد بولس . مرجع مذكور ص ٢٢٧ .
- (٧٠) أمين ناجي . المناطقية عبر أساس التنوع في الوحدة . ملف العمل الشهري رقم ١ آذار ١٩٧٧ ص ٢١٤ .
- (٧١) أمين ناجي . شرعة من أجل ... مرجع مذكور ص ٣٠ .
- (٧٢) الاسلام السياسي وهوية لبنان . مرجع مذكور ص ٤٢ .
- (٧٣) المرجع السابق . ص ٢٥ .
- (٧٤) أمين ناجي . شرعة من أجل ... ص ٥٧ .
- (٧٥) الواقع اللبناني القائم وموقف الرهبان اللبنانيين منه . منشورات الامانة العامة لمؤتمر الرؤساء الماعين للرهبانيات اللبنانية نيسان ١٩٧٥ ص ٤ .
- (٧٦) يوميات لبناني حقيق . ج ٤ ص ١٠٧ .
- (٧٧) المرجع نفسه ج ١ ص ١٠٦ .
- (٧٨) نظام سياسي مقترح للبنان الجديد . سلسلة القضية اللبنانية ص ٥٣ .
- (٧٩) مذكرة لجنة البحوث اللبنانية سلسلة « القضية اللبنانية » ١٩٧٥/١٢/١١ .
- (٨٠) فواز طرابلسي . ملامح الايديولوجية الطائفية ، الثقافة الوطنية ... مرجع مذكور ص ٧٨ .
- (٨١) د . ممن زيادة . مدخل لدراسة لبنان والمسألة الحضارية . منشورة في كتاب « لبنان الحضارة الواحدة » . منشورات النادي الثقافي العربي ص ١٢ .
- (٨٢) د . كمال سليمان الصليبي . تاريخ لبنان الحديث . مرجع مذكور ص ٢٥ .
- (٨٣) المرجع نفسه ص ٢٤ .
- (٨٤) د . لويس لورنت . مشاهدات في لبنان . تعريب فؤاد الفرام البستاني . منشورات دار المتشوف ، ايلول ١٩٥١ ص ٦١ - ٦٢ .
- (٨٥) لبنان مباحث علمية واجتماعية . مجموعة من الادياء . نظر ووضع مقدمته فؤاد الفرام البستاني . منشورات الجامعة اللبنانية ١٩٦٩ الجزء الاول ص ١٦٠ .
- (٨٦) النزعات السياسية في لبنان . وكالة الانباء الوطنية . مكتب الابحاث والدراسات ص ٦٩ .
- (٨٧) كلود كاهن . تاريخ الشعوب الاسلامية . دار الحقيقة . بيروت ١٩٧٢ ص ٦ .
- (٨٨) مكسيم رودنسون . الماركسية والعلم الاسلامي . دار الحقيقة بيروت ١٩٧٤ ص ٩٩ .
- (٨٩) ي . بليانيف . العرب والاسلام او الظلال العربية ، تعريب د . انيس فريضة . الدار المتحدة للنشر . بيروت ١٩٧٢ ص ٤١ .
- (٩٠) لبنان والهوية العربية - لبنان والعلمانية . سلسلة « القضية اللبنانية » رقم ١٣ ص ٢ .
- (٩١) فيليب حسي . لبنان في التاريخ ص ٢٩ .
- (٩٢) اسد رستم . كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى . المجلد الثاني ص ٣٢ .
- (٩٣) فؤاد قازان . لبنان في محيطه العربي . دار الفارابي ١٩٧٢ ص ١١٧ .
- (٩٥) ي . بليانيف . العرب والاسلام ... مرجع مذكور ص ١٩٢ .